حكايات من التاريخ

٢

حقاً
إنها عناية الله سبحانه

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

قصَّةُ الرَّغِيْفِ!!

زَارَ أَفْرَادُ عَائِلَةِ (أَبِي العَبَّاسِ) جَدَّتَهُمْ ، وَذَلِكَ فِي حَدِيْقَةِ بَيْتِ عَمِّهِمْ (نَوْرَسٍ) وجَلَسُوا إِلَيْهَا واسْتَمعُوا إِلَى بَعْضِ الحِكَايَاتِ التَّربَوِيَّةِ ، والأَخْلاقِيَّةِ ، وسُعِدُوا بِذَلِكَ؛ حَتَّى تَمَنَّوا أَنْ يَطُوْلَ بِهِم المُقَامُ ، وحَفِظُوا بَعْضَهَا... ومِنْهَا هَذِهِ الحِكَايَةُ الرَّائِعَةُ:

اسْتَدْعَى نَائِبُ مِصْرَ يَوْماً (ابْنَ الفُرَاتِ) فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ يا هَذا! إن نِيَّتِيْ فِيْكَ سَيِّئَةٌ ، وإِنِّي في كُلِّ وَقْتٍ أُرِيْدُ أَنْ أَقْبِضَ عَلَيْكَ ،

وأُصَادِرك ، لكِنَّ الَّذِي يَمْنَعُنِي مِنْكَ: أنِّي أَرَاك في المَنَامِ تَمْنَعُنِي بِرَغِيْفٍ!!

وفي اللَّيْلَةِ المَاضِيَةِ رأَيْتُكَ في المَنَامِ؛ وأَنَا أُرِيْدُ القَبْضَ عَلَيْكَ ، فَجَعَلْتَ تَمْتَنِعُ عَلَيَّ.

فأَمَرْتُ جُنْدِيَ أَنْ يُقَاتِلُوكَ ، فجَعَلُوا كُلَّمَا ضَرَبُوكَ بِشَيْءٍ مِنْ سِهَامٍ وغَيْرِهَا ، تَتَّقِي الضَّرْبَ بِرَغِيْفٍ في يَدِكَ ، فَلا يَصِلُ إِلَيْكَ شَيءٌ ، فأَعْلِمْنِي مَا قِصَّةُ هَذَا الرَّغِيْفِ؟!

فَقَالَ (ابْنُ الفُرَاتِ): أَيُّها الوَزِيرُ! مُنْذُ كُنْتُ صَغِيراً؛ كانَتْ أُمِّي تضَعُ تَحْتَ وِسَادَتِيْ رَغِيْفاً ، فإذا أَصْبَحْتُ؛ تَصَدَّقَتْ بِهِ عَنِّي... فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ دأْبُها؛ حَتَّى ماتَتْ.

فَلمَّا مَاتَتْ فَعَلْتُ أنا ذَلِكَ مع نَفْسِي ، فَكُلَّ لَيْلَةٍ ، أضَعُ تَحْتَ وِسَادَتِي رَغِيْفاً ، ثُمَّ أَصْبِحُ ، فأَتَصَدّقُ بِهِ.

ثُمَّ قَالَ: والله لا يَنَالُكَ مِنِّي بَعْدَ اليَوْمِ سُوءٌ أَبَداً! ولَقَدْ حَسَّنْتُ نِيَّتِي فِيْكَ ، وَقَدْ أَحْبَبتُكَ...!!

فَكَيْفَ يُضَيَّعُ مِثْلِي؟!

وأُعْجِبَ الأولاَدُ بالقِصَّةِ ، وكان تَعْلِيقُ (فِرْيَالَ) مَا يَلِي:

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى تَكَفَّلَ بِرِزْقِ عِبَادِهِ ، وسخَّرَ لَهُمْ مَا فِي البَرِّ والبَحْرِ ، وأَمرَهُمْ بالتَّعَاوُنِ والعَطْفِ ، ووَجَّهَ الأَغْنِيَاءَ إلى مُسَاعَدَةِ الفُقَرَاءِ ، وَذَلكَ عَنْ طَرِيْقِ الصَّدَقَاتِ ، والزَّكَاةِ ، والتَّبرُّعَاتِ ، ونَحْوِ ذٰلِكَ.

ثُمَّ تَوَجَّهَتْ إلى جَدَّتِهَا بِسُؤالٍ قَالَتْ فِيْهِ:

ولكِنْ: كَيْفَ يُسَخِّرُ اللهُ تعَالى هَذَا العَبْدَ

لِذَاكَ العَبْدِ؟ أَوْ هَذَا الحَيَوانَ إِلَى حَيَوانٍ آخَرَ ، وهَكَذا؟

هَزَّتِ الجَدَّةُ رأسَهَا ثُمَّ قَالَتْ: إذاً استَمِعُوا إلى هَذِهِ الحِكَايَةِ الجَمِيْلَةِ:

يُحْكَى أَنَّ أحدَ العُلَمَاءِ كانَ يَجلِسُ على سَطْحِ أَحَدِ المَسَاجِدِ في مِصْرَ.

وكان مَعَهُ بَعْضُ الأَصْدِقَاء ، فَلَمَّا جَلَسُوا للأَكْلِ ، اقْتَرَبَتْ مِنْهُم قِطَّةٌ جَمِيلةٌ.

فأَخَذَ العَالِمُ لُقْمَةً مِنَ الطَّعَامِ ، ورَمَاهَا لِلْقِطَّةِ.

فَحَمَلَتِ القِطَّةُ اللُّقْمَةَ ، وغابَتْ عَنْهُمْ.... وبَعْدَ قَليلٍ عَادَتْ إِلَيْهِمْ ، وَرَاحَتْ تَنظُرُ إلى الطَّعَامِ.

فَرَمَوْا لها شيئاً آخرَ ، ففَعَلَتْ كَذَلِكَ ،

وتَرَدَّدَتْ مِرَاراً كَثِيرةً ، وَهُمْ يَرْمُونَ لَهَا الطَّعَام ، وَهِيَ تأْخُذُهُ وتَغِيْبُ بِهِ.... حَتَّى عَجِبُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِهَا!

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إنَّ مِثْلَ هَذَا الطَّعَام لا تأْكُلُهُ القِطَّةُ وَحْدَهَا لِكَثْرَتِهِ... فَلَعلَّ هُنَاكَ سِرّاً مَا!

فَرَاقَبُوا ما يَحْدُثُ ، فَوَجَدُوَها تَرْقَىٰ إلى حَائِطٍ في سَطْحِ الجَامِعِ ، ثُمَّ تَنْزِلُ إلى مَوْضِعٍ خَالٍ ـ لا أحَدَ يَسْكُنُ فِيْهِ ـ وَفِيهِ قَطَّةٌ أُخْرَى... فَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْهَا ، وَجَدُوها عَمْيَاءَ لا تُبْصِرُ.

وتَبَيَّنَ لَهُمْ: أنَّ كُلَّ مَا تأْخُذُهُ مِنَ الطَّعَام كانَتْ تَحْمِلُهُ إلى القِطَّةِ العَمْيَاءِ..!

فَعَجِبُوا مِنْ تِلْكَ الحَالِ ، فَقَالَ العَالِمُ المِصْرِيُّ: إذَا كان هَذَا حَيَوانَاً أَخْرَسَ ،

وأَعْمَى قد سخَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى لَهُ هَذِهِ القِطَّةَ ، وَهِيَ تَقُوْمُ بِكفَايَتِهِ ، وَلَمْ يَحْرِمْها الرِّزْقَ ، فكَيْفَ يُضَيِّعُ مِثْلِي؟!

فَلْنُقَبِّلْ رَأْسَ عَبْدِ اللهِ!!

سأَلَتِ الجَدَّةُ: فَمَنْ يَحْفَظُ مِنْكُمْ حِكَايَةً جَمِيْلَةً مِنْ حِكَايَاتِ التُّرَاثِ!

قَالَ (حَمْزَةُ): أنا أَحْفَظُ حِكَايَةَ وَاحِدٍ مِنْ عُظَمَاءِ الصَّحَابةِ، أَرْسَلَه الخَلِيْفَةُ عُمَرُ بن الخَطَّابِ إلى مَلِك الرُّوْمِ مَعَ وَفْدٍ كَبِيرٍ من رِجَالاتِ الصَّحَابة... لكِنَّ الرُّوْمَانَ أَسَرُوْهُمْ!!

فَلَما مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الرُّوْمِ؛ سَألَهُمْ: مَنِ المُتَكَلِّم باسْمِكُمْ؟!

فأشاروا إلى (عَبْدِ الله بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ) ، فَقَالَ القَيْصَرُ: يا بَدَوِيُّ! إنِّي

أَعْرِضُ عَلَيْكَ أَنْ تَدْخُلَ في دِيْنِ النَّصَارَى... ، فإِنْ فَعَلْتَ خَلَّيْتُ سَبِيْلَكَ ، وأَكْرَمْتُ مَثْوَاكَ..

فَقَالَ الأَسِيْرُ في حَزْمٍ وَثَبَاتٍ: هَيْهَاتَ! إِنَّ المَوْتَ لأَحَبُّ إِليَّ أَلْفَ مَرَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ..!

فَقَالَ قَيْصَرُ: إِنِّيْ لأَرَاكَ رَجُلاً شَهْمَاً ، فإِنْ أَجَبْتَنِيْ إلى ما أَعْرِضُهُ عَلَيْكَ؛ أَشْرَكتكَ في أَمْرِيْ وقاسَمْتُكَ سُلْطَانِيَ...!

فَقَالَ الأَسِيرُ المُكَبَّلُ بِقُيُوْدِهِ: واللهِ لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيْع مَا تَمْلِكُ ، وَجَمِيْعَ مَا مَلَكَتْهُ الْعَرَبُ عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِيْنِ مُحَمَّد ﷺ طَرْفَة عَيْنٍ مَا فَعَلْتُ..!

قَالَ: إِذَنْ أَقْتُلَكَ!

قَالَ: أَنْتَ ومَا تُرِيْدُ! ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ،

وَقَالَ قَيصَرُ لِقَنَّاصتِه ـ هم الرُّمَاةُ المَهَرَةُ ـ: ارْمُوْهُ قَرِيْباً مِنْ يَدَيْهِ... ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُصْبِحَ نَصْرانِيَّاً... فأَبىٰ.

فقال القَيْصَرُ: ارْمُوْهُ قَرِيْباً مِنْ رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ مُفَارَقَةَ دِيْنِهِ ، فأَبَىٰ.

... بَعْدَ ذٰلِكَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنْهُ ، وطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُنْزِلُوهُ عَنْ خَشَبَةِ الصَّلْبِ.

ثُمَّ دَعَا بِقِدْرٍ عَظِيْمَةٍ ، فَصُبَّ فِيْهَا الزَّيْتُ ، وَرُفِعَتْ عَلَىٰ النَّارِ حَتَّىٰ غَلَتِ.

ثُمَّ دَعَا بأَسِيْرَيْنِ مِنْ أَسَارَىٰ المُسْلِمِيْنَ ، فأَمَرَ بأَحَدِهِمَا أَنْ يُلْقَىٰ فِيْهَا ، فأُلْقِيَ ، فإذا لَحْمُهُ يَتَفَتَّتْ... وإِذَا عِظَامُهُ تَبْدُو عَارِيَةً!

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى عَبْدِ اللهِ بن حُذَافَةَ ، وَدَعَاهُ إِلى النَّصْرَانِيَّة ، فكانَ أَشَدَّ إِبَاءً لَهَا مِنْ قَبْلُ.

فَلَمَّا يَئِسَ مِنْهُ؛ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَى فِي القِدْرِ الَّتِيْ أُلْقِيَ فِيْهَا صَاحِبَاهُ ، فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ؛ دمَعَتْ عَيْنَاهُ.

فَقَالَ كَبِيْرُهُمْ: إِنَّهُ قَدْ بَكَىٰ ، لَعَلَّهُ جَزِعَ ، وخافَ مِنَ المَوْتِ.

فأَخْبَرُوا القَيْصَر بِذَلِكَ ، فأَمَرَ بأَنْ يَرُدُّوْهُ إِلَيْهِ.

فَرَدُّوْهُ إِلَيْهِ ، فَلمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ عَرضَ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ ، فأَبَاهَا.

فَقَالَ القَيْصَرُ: وَيْحَكَ! فَمَا الَّذِيْ أَبْكَاكَ إِذاً؟!

فَقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ حُذَافَةَ: أَبْكَانِيْ أَنِّي قُلْتُ في نَفْسِي: تُلْقى الآن في هٰذِهِ القِدْرِ. فَتَذْهَبَ نَفسُكَ ، وقَدْ كُنْتُ أَشتَهِيْ أَنْ يَكُونَ لِيْ بِعَدَدِ

مَا في جَسَدِيْ مِنْ شَعْرٍ أنْفُسٌ ، فَتُلْقى كُلُّها في هَذَا القِدْرِ في سَبِيْلِ اللهِ...!

واحْتَارَ القَيْصَرُ في أَمْرِهِ.... وفَاوَضَهُ فَلَمْ يَتَنَازَلْ قِيْدَ أُنْمُلَةٍ...!

ثُمَّ قَالَ له: هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّل رَأْسِيَ ، وأُخَلِّيَ عَنْكَ؟

فَقَالَ عَبْدُ الله: وعَنْ جَمِيْعِ أَسَارَى المُسْلِمِيْنَ أَيْضاً؟!

قَالَ: وَعَنْ جَمِيْعِ أَسَارَىٰ المُسْلِمِيْنَ أَيْضاً...!

قالَ عَبْدُ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: فَقُلْتُ في نَفْسِي: عَدُوٌّ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ ، أُقَبِّل رأْسَهُ فَيُخَلِّيَ عنِّي وعَنْ أَسَارَىٰ المُسْلِمِيْنَ جَمِيْعاً ، لا ضَيْرَ في ذَلِكَ عَلَيَّ.

فَدَنَا مِنْهُ وَقَبَّل رَأْسَهُ ، فأمرَ مَلِكُ الرُّوْمِ أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ أَسَارَى المُسْلِمِيْنَ ، وأَنْ يَدْفَعُوهُمْ إِلَيْهِ ، فَدُفِعُوا لَهُ.

... ولَمَّا وَصَلَ عَبْدُ اللهِ وَمَعَهُ الأَسَارَىٰ إلى المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ ، وحَدَّثُوا الخَلِيْفَةَ عُمَرَ ـ رضيَ الله عَنْهُ ـ بِذَلِكَ؛ سُرَّ بِهِ أَعْظَمَ السُّرُوْرِ...!

ثُمَّ قالَ عُمَرُ: حَقٌّ على كُلِّ مُسْلِم أَنْ يُقَبِّلَ رأْسَ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ... وأَنَا أَبْدَأُ بِذَلِك... ثُمَّ قَامَ إِلَى رَأْسِ عَبْدِ اللهِ فَقَبَّلَهُ....!!

...مَعَ اللهِ: دَائِماً... وَأَبَداً

قالَتِ الجَدَّةُ في تَعْلِيْقِها على الحِكَايَةِ الَّتِي رَوَاهَا (حَمْزَةُ):

حَقّاً إنَّهَا حِكَايَةٌ رَائِعَةٌ ، وطَرِيْقَةٌ إلْقَائِكَ نَاجِحَةٌ ، فَبَارَكَ اللهُ فِيْكَ ، وبأَمْثَالِكَ! وَحَبَّذَا لَوْ يَحْفَظُ الصِّغَارُ أَمْثَالَ هَذِهِ القِصَصِ النَّافِعَةِ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهَا قُدْوَةٌ ، وأُسْوَةٌ... ثُمَّ قَالَتِ الجَدَّةُ لأَحْفَادِهَا: وأَخْتِمُ الجَلْسَةَ هَذِهِ بِهذِهِ الحِكَايَةِ الهَادِفَةِ:

يُرْوَى: أَنَّ سُلْطَان (صِقِلِّيَةَ) أَرِقَ -أَيْ: لَمْ يَسْتَطِعِ النَّوْمَ - ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فأَرسَلَ إلى قَائِدِ البَحرِ ، وقَالَ لَهُ: أنْفِذْ الآنَ مَرْكباً إلى إفْرِيْقِيَّةَ يأْتونِيْ بأَخْبَارِهَا!

فعَمَدَ القائِدُ إلَى مُقَدِّمِ مَرْكَبٍ ، وأَرْسَلَهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا إذَا بالمَرْكَبِ في مَوْضِعِهِ ، كأَنَّهُ لَمْ يَبْرَحْ! فَقَالَ المَلِكُ لِقَائِدِ البَحْرِ: أَلَيْسَ قَدْ فَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ؟!

قالَ: نَعَمْ قَدِ امْتَثَلْتُ أَمْرَكَ ، وأَنْفَذْتُ

مَرْكَباً ، وَسَيُحَدِّثُكَ مُقَدَّمُ المَرْكَبِ. فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ فَجَاءَ مَعَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَذْهَبَ حَيْثُ أُمِرْتَ؟

فَأَجَابَ: ذَهَبْتُ بالمَرْكَبِ ، فَبَيْنَمَا أَنَا في جَوْفِ اللَّيْلِ ، والرِّجَالُ يُجَدِّفُوْنَ؛ إِذَا بِصَوْتٍ يَقُوْلُ: يَا الله! يَا غِيَاثَ المُسْتَغِيثِيْنَ! ويُكَرِّرُهَا مِرَاراً.

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ صَوْتُهُ في أَسْمَاعِنَا؛ نَادَيْنَاهُ: لَبَّيْكَ! لَبَّيْكَ؛ وَهُوَ يُنَادِيْ: يَا الله! يَاغِيَاثَ المُسْتَغِيثِيْنَ!

فَجَدَّفْنَا بالمَرْكَبِ نَحْوَ الصَّوْتِ ، فَلَقِيْنَا هَذَا الرَّجُلَ غَرِيْقاً في آخِرِ رَمَقٍ مِنَ الحَيَاةِ ، فَطَلَعْنَا بِهِ إلى المَرْكَبِ ، وسَأَلْنَاهُ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ: كُنَّا مُقْلِعِيْنَ مِنْ إِفْرِيْقِيَّةَ ، فَغَرِقَتْ سَفِيْنَتُنَا مُنْذُ أَيَّامٍ ، وأَشْرَفْتُ عَلَى المَوْتِ ،

وَمَا زِلْتُ أَصِيْحُ حَتَّى أَتَانِيَ الغَوْثُ مِنْ نَاحِيَتِكُمْ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَسْهَرَ سُلْطَاناً ، وأَرَّقَهُ في قَصْرِهِ لِغَرِيْقٍ في البَحْرِ؛ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ الثَّلاثِ:

ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ ، وظُلْمَـةِ البَحْـرِ ، وظُلْمَـةِ الوَحْدَةِ.

فَسُبْحَـانَـهُ لا إِلَـهَ غَيْـرُهُ... ولا مَعْبُـودَ سِوَاهُ...!

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالِمَيْنَ.

* * *